مقدمة الكتاب
في
اللغة والاصطلاح

عباس أرحيلة

تمهيد

المقدمة عند القدماء نوعان: مقدمة الكتاب ومقدمة العلم، ومع تحقيق الكتب وُجد نوع ثالث هو مقدمة التحقيق؛ التي يتناول فيه المحقق بالدراسة: صاحب الكتاب، والكتاب المحقق، ومنهج التحقيق. وأتناول في هذه المقالة مقدمة الكتاب في مفهومها اللغوي والاصطلاحي.

أولاً: المقدمة في اللغة:

1 - مادة «**قَدِمَ**» و«**قَدَمَ**» في المعجم العربي تفيد **معنى السبق والأولية**، وترجع تراكيبُها إلى معنى الأولية.

وقد وردت هذه المادة وما اشتُق منها في نحو (48) آية من القرآن الكريم.

وقيدوم كل شيء: مُقدَّمُه وصدرُه. وقُدَّام: نقيض وراء. وقدَمَ، قَدْماً: شَجُعَ، فهو مِقدامٌ. والإقدامُ هو التقدُّمُ في الحرب. والإقدام: الشجاعة في الحرب. والقدمُ من الرجال: الكثير الإقدام. ورجلٌ مِقدامٌ: كثير الإقدام على العدو، جرِّئ في الحرب. والقُدْمة: كثرة الإقدام على العدو في الحرب. والقَدَّامُ: مَن يتقدَّم الناسَ بالشرف أو الرياسة.

والقوادم أربع ريشات في مقدم الجناح، الواحدة: قادمَة. والقَدَمَة: الشجاعة: والقَدَمَة من الغَنَم: التي تكون أمام الغنم في الرعي[1].

والقادمَة من الجيش: طائفة منه تتَقَدَّمُه. ومن الرحْل أوَّله. ومُقدِّمة الجيش: طائفة منه تسير أمامَه. والمُقدَّمُ: رُتبة عسكرية لضباط الجيش بين الرائد والعقيد.

وأطلقت المُقدِّمة في المجال العسكري على الجماعات التي تتولى الحماية الأمامية، تخرج للحصول على المعلومات عن العدو وعن الأرض، وتمنع العدو من الحصول على معلومات[2].

وفي التنزيل العزيز: ﴿**وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَم صدْق عند ربِّهم**﴾ [يونس: 2] أي سابق خير وأثراً حسناً. والمراد أن لهم قدَمَ صدق في الخير، أي أن لهم عملاً صالحاً قَدَّموه. والقدَمُ هنا بمعنى التقديم، كما نقول: هؤلاء أهلُ القَدم في الإسلام، أي الذين قدَّموا خيراً، فكان لهم فيه تقديم[3].

«**والمُقدِّمُ والمُؤَخِّرُ**» من أسماء الله الحسنى المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد منها بمفرده على الله إلا مقروناً بالآخر؛ فإن الكمال في اجتماعهما. فهو تعالى المُقدِّم لمن شاء والمُؤَخِّر لمن شاء بحكمته. **وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقديم بَحْرٌ لا ساحل له**»[4].

2 - الفعل من المقدَّمة من حيث اللزوم والتعدي:

أ - الفعل من المقدمة **إما من قدِمَ أو قدَم اللازم**، بمعنى تقدَّمَ، أي صار أمام: قدَمَ يقدُمُ قدْماً وقُدوماً بمعنى تقدَّمَ، وقَدِمَ، كلاهما: **صار أمَامَ**.

واسم فاعل: مقدِّمٌ **ومُقدِّمة**، بكسر الدال لا غير.

والمُقدِّمُ من أسمائه تعالى، كما سبقت الإشارة: وهو الذي يُقدِّمُ الأشياء في مواضعها، فمن استحق التقديم قدَّمَه.

ففي اللسان: قدَمَ وقَدِمَ وتقَدَّمَ واستقدم بمعنى، كما يقال استجاب وأجاب. واستقدَم القومَ: سَبَقهم فصار قُدَّامَهم.

ب - **أو من قدَمَ أو قدِمَ المتعدّي**، نقول: قدَمَ فلانٌ فلاناً، يقدُمُه قُدوماً وقدْماً إذا تقدَّمَه، وقدمَه كلاهما: صار أمامَه. وقدَمَ القومَ قدْماً وقدوماً: سبَقَهم فصار قَدَّامهم.

ومنه قوله تعالى: **﴿يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة فأوردَهم النارَ﴾** [هود: 98] أي أن فرعون يتقدَّم قومَه إلى النار أي يسير قدَّامَهم.

وأقدم فلان: تقدَّم، وتقدَّم صار قدَّاماً، وقدَّمَه: جعله قدَّاماً، وقدَّامَ: ظرف مكان بمعنى أمام.

وفي التنزيل **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾** [الحجرات: 1] فسَّره ثعلب فقال: من قرأ «تُقَدِّموا» فمعناه: لا تُقَدِّموا كلاماً قبل كلامه. ومن قرأ «لا تُقَدَّموا» فمعناه: لا تَقَدَّموا قبله. **ومقدمة الكتاب**: أوَّله[5].

فَقَدِم المتعدي اسم فاعله بكسر الدال **واسم مفعوله بفتحها، نقول مقدِّمة ومقَدَّمة.**

3 - المقدمة صفة نُقِلت للاسمية

رأينا أن اسم الفاعل من: قدَمَ اللازم هو مقدِّمة بمعنى ذات متقدِّمة، أي ثبت لها التقدم، ولا خلاف في أن المقدِّمة صفة، ثم نُقل ذلك الاسم من الوصفية وجُعل اسماً للجماعة المتقدمة من الجيش؛ وحينئذ فالتاء فيها للدلالة على النقل من الوصفية للاسمية. **فالمقدمة صفة نُقِلتْ للاسمية. ومن مقدمة الجيش نُقل اسم المقدِّمة على وجه الحقيقة أو المجاز وأطلق على اسم كل شيء. وأنَّث لفظ مقدمة باعتبار أن الجيش طائفة.**

وقال بهاء الدين السبكي (763هـ) في **عروس الأفراح**: «مقدمة

الجيش: لأنها تُقدِّمُه أي **تجْسُرُه على التقدم**»[6]؛ والجَسارة هي الجَراءة والإقدام على الشيء، والجَسْر والجِسر: القنطرة؛ **فكأن الكتاب جيشٌ ومقدمتُه تلك الطائفة من الكلمات التي بها يتجاسر على المقصود، بها يتقدم إلى القارئ، وكأن هذا القارئ يُشاهد معركة يُصبح طرفاً فيها.** وتُصبح تلك المقدمة في الآن ذاته وسيلة عُبور إلى الكتاب.

قال عبيدالله بن قيس الرقيات (نحو 85هـ):

واللـه أبـرَحُ فـي مُـقـدَّمـةٍ ... أهْدي الجُيوشَ عليَّ شكَّتيَهْ
حتـى أُفَـجِّعَـهـم بـخـوتِـهـمْ ... وأسوقَ نِسوَتَهم بنِسْوَتِيهْ[7]

ويقول أبو تمام (231هـ):

نَزلتْ مُقدِّمَةُ المَصيفِ حميدَةً ... ويَدُ الشتاء جديدةٌ لا تُكْفَرُ[8]

وهكذا فبعدأن كانت لفظة «مقدِّمة» تطلق على مقدمة الجيش، أي على الطائفة التي تتقدمه؛ **استُعيرتْ للدلالة على اسم أول كل شيء.**

وهكذا قيل: مقدِّمة الكتاب، ومقدِّمة الكلام... «ومقدمة القياس عند المنطقيين ما تترتب عليه النتيجة من القضايا كما في قولك: كل مركَّب فاسد وكل جسم مركَّب؛ فكل جسم فاسد»[9].

4 - المراد بالمقدمة يتعيَّنُ بالإضافة

إذا نُقِلَتْ الصِّفة في مقدمة إلى الاسمية:

- فإما أن نجعلها اسماً للطائفة المتقدمة من الجيش، ثم تُنقَل منها على وجه الحقيقة أو المجاز إلى اسم أول شيء، ويتعين المراد بالإضافة.

وإما أن ننتقل من الوصفية إلى اسم كل شيء، ويتعين المراد بالإضافة؛ ويتمُّ النقل **بلا واسطة**[10].

وهكذا فعندما نُطلق اسم «المُقدِّمة» على أول شيء، يتعين المراد بالإضافة، فيقال: مقدِّمة الجيش، مقدِّمة الكلام، مقدِّمة الكتاب، مقدمة العلم، مقدمة التحقيق، مقدمة البحث.

المقدمة [صفة بلا نزاع، حقيقتها الوصف]	
تُنقَلُ إلى الاسمية فتُطلَق على	تُنقَلُ من الوصفية إلى اسم أول كل شيء
(1) اسم الطائفة المتقدمة من الجيش	(1) صفة للطائفة المتقدمة من الجيش
(2) ثم تنقل على وجه الحقيقة أو المجاز إلى اسم كل شيء	(2) تنقل على وجه الحقيقة أو المجاز (إلى اسم كل شيء)
(3) ويتعين المراد بالإضافة	(3) ويتعين المراد بالإضافة
(4) النقل بدون واسطة	(4) النقل بواسطة

وخلاصة القول إن المقدمة أطلقت على الجماعة التي تتقدم الجيش ثم استُعيرت لأول كل شيء، فقيل: مقدمة الكتاب. وارتبطت المقدمة عامة بمجال التأليف، **وأصبحت تطلق في الاصطلاح على الألفاظ التي تتقدم على المقصود من الكتاب أي تُطلق على ما يُقدَّم به الكتاب. فارتبطت ببداية الكتاب وأصبحت علامة لها موقعها ووظيفتها، يُنتفع بها، وتُفتقد إن غابت.**

والمقدِّمة بكسر الدال، ويصحُّ فيها الفتح، لأن **القياس لا يمنع فتحها.** وعلى هذا يمكن أن نقول مقدَّمة الكتاب بفتح الدال؛ **فهي مقدَّمة بوضعها في بداية الكتاب وإن كانت هي آخر ما يُكتب، ولكن المؤلف يقدِّمها على غيرها. وكسر الدال أحسن؛ لأن فتحها يوهِمُ أن تقديمَها كان بفعْل فاعلٍ لا بالاستحقاق الذاتي، أي كأنَّ المؤلِّف لم يكن له رأيٌ في تقديمها**[11].

ثانياً: المقدمة في الاصطلاح

1 - مفهوم المقدمة:

رأينا أن مقدمة الكتاب أخذت من مقدمة الجيش، فمقدمة الجيش تَقْدُمُه أي تجْسُرُهُ على التقدم للغلبة والانتصار على العدو، ومقدمة الكتاب تجعل الإنسان يتقدَّم لمقصوده. وقد تقرر لدى القدماء عامة أن لفظة مقدمة التي كانت مرتبطة بالجيش في الاستعمال، وتطلقُ على الجماعة التي تتقدمه؛ قد استعيرتْ لأول كل شيء، فقيل **مقدمة الكتاب**، ومقدمة الكلام. والأصل في هذا ما قرَّره الزمخشري (538هـ) في معجمه **الفائق في غريب الحديث** في مادة «قدم». ولا يُعرَف أول من استعمل مقدمة كتاب (بصيغة الإضافة) قبل الزمخشري في معجمه هذا.

وذكر سعد الدين التفتازاني (791هـ) أن مقدمة الكتاب تُطلق على «**طائفة من كلام قُدِّمت إلى المقصود لارتباط له بها، وانتفاع بها فيه**»[12].

وهذا التعريف تردد في جل الشروح والحواشي التي تناولت مفهوم المقدمة بالشرح والتعليق. وتقرر في هذا التعريف ما يأتي:

- المقدمة جزء من الكتاب، طائفة من الكلام، من كلام مؤلفه.
- لها ارتباط بمقصود المؤلِّف، بموضوع الكتاب، وبالغاية منه.
- ووظيفتُها أن تُقدِّم ما يُنتَفَع به في فهم الكتاب، وما يُستعان به على تبصرة القارئ وتوجيهه.

أي أنها تطلق على تلك المعلومات التي يتقدّم بها المؤلِّف أمام قارئه لإطلاعه على أهمية الكتاب ومقاصد صاحبه فيه. وارتباط تلك المعلومات بطبيعة الكتاب، يجعل القارئ على بيِّنة من الكتاب؛

فينتفع من تلك المقدمة في وضع الكتاب في إطاره المعرفي وسياقه التاريخي، وتحديد مضامينه.

ومقدمة الكتاب خطاب موجه للقارئ، خطاب يحمل تصورات وتنبيهات تُتَّخذ نبراساً لفهم مقاصد صاحب الكتاب. فهي كما رأينا من خلال الأقوال: **مِفتاح للكتاب، ودليل على حاجة صاحبه، وإنباء عن المقصود، واستدراج للقارئ.**

ولم أجد من قدَّم تصوُّراً للمقدمة في القديم، كما فعل علي بن خلف الكاتب [كان يعيش في مطلع القرن الخامس] في كتابه: مواد البيان. وهذه خلاصة ما أورده:

2 - أهمية المقدمة: تحتل منزلة الرأس من الجسد:

وجودها ضروري في كل خطاب بشري، يقول علي بن خلف عن أهمية وجودها: «**فإن منزلة هذه المقدمات من كل كلام مؤلف منزلة الرأس من الجسد، والأساس من البناء، وكما أن الرأس يضم أعضاء الجسد ويرأسها، كذلك المقدمة التي يُقدِّمُها المنشئ في صدر كلامه تضم ما تتبعه ويقع في ضمنه، وكما الباني لابد له من وضع أساس لما يبنيه يعتمد عليه ويستند إليه.**

كذلك مؤلف الكلام لا يغني عن تقديم مقدمة يتطرق منها إلى ما يروم التأليف فيه؛ لأن كل كلام لا يخلو من فَرْش يُفرش قبله غير داخل في حكم الكلام المنظوم»[13].

ولاحظ أن المقدمات يشترك في استعمالها أصناف المؤلفين من الخطباء والشعراء والكتاب وغيرهم من المصنفين، أما الخطباء فعادتهم جارية بافتتاح خطبهم بفنون محامد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وأما الشعراء فإن عادتهم جارية أن يفتتحوا قصائدهم بالتشبيب الرقيق الغزل، فأما الكتاب فإن

عادتهم جارية أن **يفتنوا في المقدمات التي يقدمونها أمام رسائلهم بحسب أفنان أغراضها**.

ولأهمية المقدمة وضرورة وجودها في كل تأليف، ذكر صاحب «مواد البيان» أن بعضهم قرر أنه «**لا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه، وإن كان وجيزاً نافذاً في أحقر الأمور، من مقدمة يفتتحه بها وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة ليوفي التأليف حقه**»[14].

3 - كيفية استعمال المقدمة:

ولما كانت الرسائل تتعدد مقاصدها؛ فإن أساليب تقديم تختلف من مترسِّل إلى آخر. يقول علي بن خلف: «**فأما كيفية استعمال هذه المقدمات فلا يمكن الإبانة عنها برسوم كلية تجمعها، وإنما يُرجع في ذلك إلى معرفة الكاتب بما يستحقه كل نوع من أنواع الكلام من المقدمات التي تُشاكله**»[15].

ذلك أن محتويات المقدمة تتعدد تبعاً لطبيعة الكتاب ومقاصد صاحبه منه، وغايتها أن تضع القارئ في قلب مشروع صاحبه.

وأرى أن هذه الرسوم الكلية قد توافرت في مجال التأليف في حضارة الإسلام، وسأكشف عنها في مقالة لاحقة بحول الله تعالى.

4 - العناية بصياغة المقدمة:

وما أفاد به ابن خلف القارئ بوجه عام هو أن يُعنى الكاتب بصياغة المقدمة؛ فيُتخير لها من أوجز الألفاظ وأشرفها وألطفها وأخفّها؛ «**لأنها مبادئ الكلام التي تقرَع الأسماع أولاً، وإذا شرُفت شرُف ما يلحقُها ويُرادفُها لتعلُق القلب بالابتداء**... وأما معانيها فيجب أن يودّعها كل ما يُحتاج إلى الإبانة عنه، لتدل بصدورها على أعجازها وبمباديها على تواليها ولا يخفى عن سامعها ما ينتهي إلى

خاتمتها: **لأن المقدمة متى لم تكن بهذه الصفة لم يستحق الكلام اسم البلاغة.**

وببراعة مقدمات الكلام يظهر فضل بعض الكتاب على بعض، ويُستدل على مهارة الماهر وتقصير المقصر، والناقد في الصناعة المطبوع عليها لا يفتقر إلى زيادة على ما ذكرنا »[16].

5 - المقدمة دالة على غرضها:

ولاحظ ابن خلف أن المقدمات تختلف باختلاص ما تقدمه، وأن عادات المصنفين جارية «**أن تكون مقدمات مصنفاتهم مستنبطة من أنفَس العلوم التي صنفوها ودالة على أغراضها. ومن نظر في التصانيف في جميع أفانين العلم لم يكد يقع على كتاب خالٍ من مقدمة يتطرَّق منها إلى ما بعدها، ويرتقي عليها إلى ما يتلوها** »[17].

6 - وظيفتها:

ومن وظيفة المقدمة أن تربط القارئ بالكتاب بشكل مباشر، وتكشف عن مضمونه وأهميته وغاية صاحبه، وعن نظرة مؤلفه لمشروعه في إطار مجاله. وتحمل للقارئ إفادات وتوجيهات، يستطيع من خلالها أن يضع بها الكاتب في إطاره العلمي والتاريخي، ويقف على منهجه ومحتوياته، ويعرف بها مكانة مؤلِّفه.

وأستطيع أن أقول إن لها وظائف أربعاً:

وظيفة الإخبار إذ أنها تُنبئ عن المقصود فتضع القارئ في الوضع المناسب لاستقبال الكتاب. **ووظيفة التوجيه** (المنهج، التصميم وتحديد محتويات الكتاب إلى جانب حضور النزعة التعليمية لتوجيه الفكر والسلوك)، **ووظيفة الكشف** (عن طبيعة العمل وظروف إنتاجه ونوعه)، **وظيفة الاستدراج** (ربط القارئ بمشروع الكتاب قصد فهمه).

وقد تراهن المقدمة على نتيجة البحث، فتصبح بمثابة افتراض أو أساس ينطلق منه الاستدلال؛ فتقترب من المقدمة المنطقية.

والمقدمة خطوة يتصدر بها كل تأليف، خطاب تمهيدي، جزء من مشروع، وسيلة للتوجيه والإخبار والاستكشاف، وسيلة للتأثير، يتم بها إعداد القارئ للدخول إلى رحاب الكتاب. وقد تصبح من دواعي نجاح الكتاب وانتشاره.

ونظراً لأهمية هذه الوظائف التي أنيطت بالمقدمة كانت الدعوة إلى العناية بها، واتخاذها موضع براعة وحذق، واعتبار التفوق فيها نجاحاً للكتاب وصاحبه. وسأتناول هذه الوظائف أثناء النظر في مكونات المقدمات ومحتوياتها، في عدد لاحق إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: مصطلحات شاركت لفظ المقدمة في الاستعمال:

مصطلح «مقدمة الكتاب» ساد في التراث العربي بشكل عام وإن شاركته أسماء أخرى أهمها: فاتحة الكتاب، خطبة الكتاب، صدر الكتاب، رسالة الكتاب، ديباجة الكتاب...

الفاتحة: فاتحة الشيء: أوّله، والفتح أول المطر، وفواتح السور: أوائل السور، والواحدة فاتحة[18].

وورد في كليات أبي البقاء الكفوي (1094هـ): «**فاتحة كل شيء مبدؤه الذي يفتتَح به ما بعده، وبه سمي فاتحة الكتاب؛ فإنها فاتحة وأول بالقياس إلى جموع المُنزّل لا إلى الكل الذي هو القدر المشترك**؛ فتقدمت على سائر السور، وضعاً بل نزولاً على قول الكثيرين. قيل الفاتحة في الأصل مصدر بمعنى الفتح ثم أطلق على أول شيء.. والأحسن أنها صفة جُعلت اسماً لأول الشيء، والتاء إما لتأنيث

الموصوف في الأصل وهو القطعة، أو النقل من الوصفية إلى الاسمية»[19].

وفاتحة الكتاب: «معناها أول ما من شأنه أن يُفاتَح به الكتاب.. والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى(من) كما في خاتم فضة»[20]؛ **فالمقدمة جزء من الكتاب**.

وأطلقت فاتحة الكتاب في مجال التأليف على مقدمته، وثبت هذا في كثير من كتب التراث الإسلامي العربي.

(2) **صدْر الكتاب**: يُقال: فلان له الصدارة في قومه أي له التقدم فيهم. وتصدَّر الفرس: تقدَّم الخيل بصدره. وكلمة لها الصدارة: مختص بوقوعها في أول الكلام.

وأطلق على المقدمة صدر الكتاب؛ إذ إن صدر كل شيء: أوله، وصدَّر الكتاب: جعل له صدراً، وصدَّر الكتاب: افتتحه بمقدمة[21].

وممن أطلقوا مصطلح صدر الكتاب على مقدمة الكتاب نذكر، على سبيل المثال، صاحب **زهر الآداب** [127/1] وصاحب **الذخيرة**: 23/ 1/1، 19-18/2/1] وابن خير **في فهرسته** [ص 344][*].

(3) **الديباجة**: من دَبَجَ الشيء يدبُجُه دبجاً: نقشه وزيَّنه. والديباج: ضرب من الثياب سَداه ولحمتُه من الحرير. و**ديباجة الوجه**: حسن بشرته. وديباجة الكتاب: فاتحته، ويقال لكلامه وشعره وكتابته ديباجته حسنة: أسلوب حسن. والديبجتان: الخدان. تقول: هو يصون ديباجتيه[22].

(4) **رسالة الكتاب**: لما كانت المقدمة **رسالة تحمل توجيهات إلى القارئ**، وأحياناً تحمل **مبادئ وتصورات وتنبيهات**؛ فقد أطلق مصطلح رسالة على مقدمة الكتاب. ونجد أبا القاسم الزجاجي (337هـ) يكتب كتاباً يشرح فيه الصفحات الأولى من **كتاب**

سيبويه (180هـ) ويطلق عليها اسم **رسالة**. فما أورده سيبويه في مقدمة كتابه اعتُبر **رسالة**، وأطلق عليه النحاس (337هـ) مصطلح **ديباجة**، وأسماه ابن جني (492هـ) **خطبة** في كتابه **الخاطريات**[23].

وكما أطلق بعض القدماء على ما استهل به سيبويه كتابه اسم رسالة، فقد أطلقوا على مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة (276هـ)، وعلى مقدمة جمهرة ابن دريد (322هـ) اسم رسالة. ونجد المعافي بن زكريا النهرواني الجريري (390هـ) يقول في نهاية مقدمة كتابه **الجليس الصالح الكافي والأنيس الصالح الشافي**: «وأنا مُنْهٍ هذه **الرسالة** إلى هذا الموضع، ومبتدئ بما قصدت إيداعه هذا الكتاب وتضمينه إياه» [169/1].

(5) **وخطبة الكتاب**: صدره ومقدمته. وقد انتشر هذا المصطلح وشاع في التأليف العربي، ولاحظ د. أحمد جاسم النجدي أنه كان أكثر وروداً عند القدامى للدلالة على المقدمة منذ القرن الرابع للهجرة[24].

وورد مصطلح الخطبة، على سبيل المثال عند: أبي حيان التوحيدي (414هـ) في **البصائر والذخائر** [52/3] وعند الثعالبي (429هـ) في **يتيمة الدهر** [7/4]، وفي **إحكام صنعة الكلام** للكلاعي (ق 6هـ) [ص 37]، وفي **وفيات الأعيان** لابن خلكان (681هـ) [121/1].

وذهب د. أحمد جاسم النجدي إلى أن المصطلح الشائع للمقدمة هو مصطلح الخطبة، ويليه مصطلح المقدمة. وأرى أن مصطلح المقدمة أكثر شيوعاً من مصطلح الخطبة. ولا يمكن أن نطمئن لوجود مصطلح مقدمة أو مصطلح خطبة في أوائل الكتب، كما لاحظ النجدي، فالمحققون كثيراً ما يتزيدون فيضعون المصطلحين المذكورين في أوائل الكتب المحققة دون أن يكون لهما أصلاً في المخطوطات[25].

وعموماً استعمل المؤلفون العرب من المصطلحات للدلالة على المقدمة: قليل منهم: ديباجة الكتاب، وصدر الكتاب، ورسالة الكتاب، وكثير منهم خطبة الكتاب، وأغلبهم مقدمة الكتاب.

رابعاً: المقدمة حينما تدل على التمهيد أو المدخل (ملاحظات)

- هناك من استعمل مصطلح مقدمة للدلالة على ما يُمكن أن نُطلق عليه حالياً مصطلح مدخل أو تمهيد أو توطئة:
- ووجدت أول من استعمل مصطلح « **مدخل** » للتعبير عما يُمهَّد به للبحث حمزة الأصبهاني (351هـ) في كتابه **الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة**، حيث قال: « **وأقدِّم هاهنا مقدمة تُشبه المدْخَل إلى الكتاب؛ أدُلُّ فيها على كيفية تفسير هذه الأمثال** » [56/1].
- ووجدتُ بعض المؤلفين استعملوا لفظ مقدمة للدلالة على التمهيد أو المدخل، من هؤلاء أبو بكر الجصاص (370هـ) حيث قال في مقدمة **أحكام القرآن**: « **قدمنا في صدر هذا الكتاب مقدمة** تشمل على ذكر جمل مما لا يسع جهله من أصول التوحيد، **وتوطئة لما يحتاج إليه** من معرفة طرق استنباط معاني القرآن، واستخراج دلائله وأحكام ألفاظه.. » [6/1]. وهو أول من وجدته استعمل لفظة « **توطئة** » **للدلالة على المدخل**.
- ويقول ميثم البحراني (679هـ) في مقدمة **شرح نهج البلاغة**، وهو بدوره أسمى المدخل إلى الشرح مقدمة: «وقبل الخوض في المطلوب لابد من تقديم مقدمة يُستعان بها على ما عسى أن أذكره من البماحث في هذا الشرح إن شاء الله تعالى» [ص 26].

ويمكنني أن أقول إنه تم استعمال: المقدمة والمدخل والتوطئة والتقْدِمة والتمهيد في القرن الرابع للدلالة على شيء واحد.

- ووجدت أول من استعمل **التقدمة** أبا سليمان الخطابي (388هـ) حيث قال في نهاية مقدمة كتابه «**غريب الحديث**»: «وقد رأيت أن أقدِّم هذه الفصول بين يدي ما أنا مفسِّرُهُ من غريب الحديث في كتابنا هذا ليمتثلها أصحاب الحديث وطلاب الأثر، فتكون **تقدمة للمعرفة وتوطئة للصناعة**، وأجعلها رفداً للمسترفدين» [52/1].
ومن الذين استعملوا مصطلح مقدمة بمعنى التمهيد نجد القسطلاني (923هـ) يقول في نهاية مقدمة الأولى لـ «**إرشاد الساري**: «**وهذه مقدمة مشتملة على وسائل المقاصد، يَهتدي بها إلى الإرشاد السالك والقاصد**، جامعة لفصول، هي لفروع قواعد هذا الشرح أصول» 3/1.

- صاحب «**الموافقات**» أسمى تلك التمهيدات مقدمات، ووضع لها العنوان الآتي: **تمهيد المقدمات المحتاج إليها قبل النظر في مسائل الكتاب وهي بضْع عشرة مقدمة** [من ص 10 إلى ص 62].

- ويلاحظ أن في كتب البلاغة عامة وكتب شراحها خاصة نجد استعمال المقدمة بمعنى التمهيد، أشير فقط إلى «**المثل السائر**» [35/1] وكتاب «**الطراز**» [6/1].

- ومقدمات كتب التفسير لا تخلو في مجموعها من وضع مداخل قبل مباشرة التفسير.

- والمقدمة كما هو مقرر قديماً وحديثاً هي آخر ما يُكتب، وقد وجد النووي في شرح المهذب «ومن المُصنفين من يترك موضع الخُطبة بياضاً، فإذا فرَغ ذكرها... لتكون عبارته في الخطبة موافقة لما ذكره» [77/1].

الهوامش

1) اللسان [قدم].

2) المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم: محمود شيت خطاب: 2/593-594 [قدَمَ]. وفي **سفر السعادة وسفير الإفادة** للسخاوي (643هـ) التُّقُدميَّة: تفعُليَّة، وهي أول الخيل، ومضى القوم التقدمية: إذا تقدَّموا [1/178-179].

3) معاني القرآن: الأخفش: 1/369.

4) شرح أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص. ط 5 [الرياض، مؤسسة الجريسي، 1997].

5) اللسان [قدم] - المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم: 2/593-594.

6) عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص: 1/65-66.

7) الديوان: 100، من مرثية، والسِّكة: السلاح السابغ.

8) الديوان: 2/191 - من قصيدة في مدح المعتصم (227هـ)، ويعلق التبريزي (502هـ) على البيت بقوله: أصحاب اللغة يقولون مقدِّمة الجيش بكسر الدال، والقياس لا يمنع فتحها.

9) محيط المحيط: 730.

10) يواقيت المشتري من جوهر الأخضري - فن البلاغة - محمد بن العربي الهلالي: 8.

11) في تاج العروس: قيل: يجوز فتح دال مقدمة. قال البطليوسي: ولو فُتِحتْ الدال لم يكن لحْناً؛ **لأن غيره قدَّمه**، وعن ثعلب أنه فتح الدال [قدم].

12) شرح التلخيص: 1/68-69.

13) مواد البيان: 119-120.

14) نفسه: 120-121.

15) نفسه: 121.

16) نفسه: 122.

17) نفسه: 122.

18) اللسان [فتح].

19) الكليات: 693-694.

20) فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق بن حسن القنَّوْجي: 9/1 - وقال الألوسي (1270هـ) في تفسيره: **روح المعاني**: «الفاتحة في الأصل صفة جُعلت اسماً لأول شيء لكونه واسطة في فتح الكل، والتاء للنقل أو المبالغة ولا اختصاص لها»: 34/1.

21) اللسان - المعجم الوسيط [صدر].

22) نسها [دبج].

*) الأرقام الواردة بين معقوفين تشير إلى الأجزاء والصفحات للكتب الواردة في السياق.

23) يقول ابن جني: «حدود الكتاب سبعة وثلاثون بعد **الخطبة**، وآخرها ضرورة الشاعر»: الخاطريات: 23.

24) منهج البحث الأدبي عند العرب: 226.

25) نفسه: 227.

من المصادر

- إحكام صنعة الكلام: أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي (ق 6هـ) تحقيق: د. محمد رضوان الداية - د.ط [بيروت، دار الثقافة، د.ت].

- أحكام القرآن: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (370هـ) - ط 1 [بيروت، دار الكتاب العربي، 1986].

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس أحمد بن محمد القسطاني (923هـ) ط 1989، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي: أبو الفرج مُعافي بن زكريا النهراوي الجريري (390هـ)، تحقيق: د. محمد موسى الخولي - ط 1 [بيروت، عالم الكتب، 1981].

- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة: حمزة بن حسن الأصبهاني (351هـ)، تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش - ط 1 [دار المعارف، القاهرة، 1971].

- زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (453هـ)، تحقيق: د. زكي مبارك، وزاد في ضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبدالحميد - ط 4 [بيروت، دار الجيل، د.ت].

- سفر السعادة وسفير الإفادة: أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (643هـ)، تحقيق: محمد أحمد الدالي - ط 1 [دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1983].

- فتح البيان في مقاصد القرآن: صدّيق بن حسن القنّوجي (1307هـ/1889م)، ضبطه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري - ط 1 [قطر، إدارة إحياء التراث، 1989].

- المجموع، شرح المُهذب: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (676هـ) - د. ط [بيروت، دار الفكر، د.ت].

- الموافقات في أصول الأحكام: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (790هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد - ط 1 [القاهرة، مطبعة محمد صبيح، 1969].